الفصل الحادي عشر

أزمنة ومواسم

موسم ووقت.... وقت يلد ووقت يموت، وقت للزراعة، ووقت لقطف الثمار، وقت للقتل، وقت للشفاء.... وقت للحرب، ووقت للسلم.

السفر الكنسي: 3/ 1 ـ 8

حكم بلدوين الأول في القدس لفترة ثمانية عشر عاماً، وقد قام بالكثير من أجل تقوية انتصارات الحملة الصليبية الأولى، ولإقامة الممالك الصليبية فيما وراء البحار كحقائق سياسية أبدية، وعندما خلف أخاه غودفري كانت المملكة الصغيرة التي ورثها غير منظمة تماماً ومفلسة عملياً، يقوم عليها عصبة من الفرسان غير القانونيين من اللورين، ومرتزقة محليين غير أهل للثقة، وكان يحدق بها الأعداء من الداخل والخارج، وكان يعلم أن المسلمين سيصعدون حتماً هجوماً مضاداً في يوم ما، وأن الأمراء المسيحيين الآخرين كانوا حاسدين له، ومصممين على نيل ممالك صغيرة لكل منهم، ولو اضطرهم ذلك لتدبره على حسابه الخاص، على حين كانت السلطة المنظمة في البلاد، وهي الكنيسة يرأسها رئيس الأساقفة ديمبرت الذي كان كارهاً له، وكانت عماده الوحيد، وأثمن ما لديه مواهبه وسمعته الهامة والكبيرة التي نالها لقاء قساوته التامة، وعناده اللذين استغلهما إلى أقصى الحدود.

لقد روع العرب جنوب وشرق القدس بقيامه بغارات ضاربة، واستولى على عدد من المدن الساحلية، وقام بتذبيح سكانهم ليزيد تخويفاً من اسمه،

كما هزم جيشاً مصرياً قوامه أكثر من ثلاثين ألف رجل بمساعدة مائتين وستين فارساً فقط، وبأقل من ألف من المشاة، ورغم أنه خسر حياته ومملكته في مجابهة تالية مع جيش مصري نجده بعد فترة خمس سنوات من تتويجه ملكاً قد استولى على عكا، وضمن ما كان يحتاجه تقريباً: وهو ميناء آمن في كل الأجواء، وبعد تزويد حلفائه الجنوبيين والبنادقة بملاذ آمن لاسطولهم، انطلق ليستولي على صور، وقد اعتمد عليه في الدعم البحري والاتصالات مع أوروبا عبر البحر، وكان ناجحاً في تقوية مملكته، حتى أنه في نهاية حياته قرر غزو مصر في محاولة لتدمير عدوه القوي جداً، ورغم أن حملته بدأت جيدة، لكنه سقط صريع مرض مهلك قبل أن يتمكن من إنجازها، وحاول رجاله العودة به إلى الوطن ليموت، غير أنه مات عند العريش المدينة الحدودية الصغيرة، وأعيد جثمانه إلى القدس ودفن في كنيسة القيامة إلى جانب أخيه غودفري في أحد السعف سنة 1118»، ولدى موته اتسعت مملكته من بيروت شمالاً إلى بئر السبع في الجنوب، ومن نهر الأردن شرقاً إلى ساحل البحر المتوسط غرباً، عدا صور وعسقلان اللتين بقيتا في أيدي أعدائه، وكان ما قام به انجازاً عظيماً بحق.

وخلال حكم بلدوين الأول عاد العديد من الصليبيين الأصليين إلى أوطانهم، غير أن العديد منهم استقروا، وأمضوا بقية حياتهم في الممالك الصليبية فيما وراء البحار، لما كانت لدى مختلف مراتب رجال الجيش حافز قليل، أو لم يكن لديهم على الإطلاق ليقوموا برحلة العودة، ولعل كلمة «استقروا» مضللة، لأن حياة الممالك الصليبية خلال تاريخها، كانت مضطربة، وغير مستقرة، فقد كانت داخلياً تهددها النزاعات على الحكم بين الأسر الحاكمة الكبرى التي كانت تنافس وتحسد بعضها البعض، وغير قادرة على العيش مع بعضها في سلام، بينما كانت خارجياً تعيش على أرضية من الحرب الدائمة مع المسلمين، وقد تركز معظم تاريخ الحملات الصليبية على مجريات محيرة وملتوية للحروب الداخلية والخارجية، كان بالإمكان تجنبها،

والسبب كما أشار رفنسمان أعظم مؤرخ أنكليز حديث لتلك الفترة في كتابه تاريخ الحروب الصليبية: «لأن الحرب كانت الأرضية التي استندت إليها حياة الممالك الصليبية، وكانت نكبات القتال غالباً ما تقرر تاريخها»، غير أن الأحداث القتالية المتكررة في الزمن، كانت بعد ذلك كله ليست أكثر من أساس تلك الحياة التي طورت نموذجاً خاصاً بها مع مرور السنين، ومع ذلك لم يصفها المؤرخون، ولم يكن هاماً بالنسبة لهم كيف عاش معاصروهم عندما لم يكونوا يقاتلون، ولكن المواد المتناثرة خلال المدونات وأدب تلك الفترات فيها نذر يسير من المعلومات التي مكن منها تأليف صورة عن الحياة اليومية في الممالك الصليبية، خاصة تلك المتعلقة بالأسر النبيلة والطبقات المترفة. المعلومات التي يمكن منها تأليف صورة عن الحياة اليومية في الممالك الصليبية، خاصة تلك المتعلقة بالأسر النبيلة والطبقات المترفة.

وكان الصليبيون الأوائل من الفرنسيين أو النورمانديين تقريباً، كما كانت الدويلات التي تأسست قد أحدثها دون شك، رجال فرنسيون، كان الجميع يتكلمون اللغة الفرنسية مما أدى بإخلاص إلى ظهور الطبقة أو البنية الإقطاعية للمجتمع الفرنسي المعاصر في الممالك الصليبية، في حين حلت الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها اللاتينية محل الكنيسة الأرثوذكسية وطقوسها الأغريقية، وخلال القرنين من وجودها لم تتغير ممالك الصليبيين في تلك المسائل، أما في نوع السبل الأخرى فقد تغيرت طريقة الحياة بشكل عميق بسبب شروط المناخ والطبيعة، وكذلك بسبب المصادر الطبيعية في الأرض، ومع مرور السنين خضع الأفرنج في الممالك الصليبية فما وراء البحار لعملية التشريق البطيئة، وكانت النتائج صدمة منتظمة للقادمين الجدد من الغرب، ولو أنهم كانوا أكثر عدداً مع أساليبهم وعاداتهم الغربية فلربما لم يتغيروا على مر السنين، ولكنهم خلال مجرى تاريخهم الكلي كانوا أقلية صغيرة عرقياً واجتماعياً في البلاد اليت حكموها، وقد قدر أنهم يقاربون ألف فارس مقيمين في مملكة القدس، رغم أن عددهم قد تضخم مع مجيء الزوار الجدد بين

الحين والآخر، وهو شيء حقيقي ينطبق على السكان الفرسان جميعهم لأمارة أنطاكية وكونتية طرابلس والرها، وكات عدد الفرنجة في الجيش الصليبي كبيراً، ومع ذلك فقد تفوق السكان المحليون عليهم بشكل كبير، وتألف هؤلاء من المسيحيين الناطقين باليونانية والأرمن واليهود والمصريين والعرب الذي كان بعضهم مسيحيين أو مسلمين، غير أنه لم يجر أي اتصال اجتماعي كبير بين الأفرنج وأولئك الذين حكموهم، وكان التزاوج بينهم نادراً إلى حد بعيد، حيث مال أفراد المجموعات الأرستقراطية من الأسر الحاكمة للتزاوج فقط من أفراد الأسر المشابهة، رغم أن القليلين تزوجوا من بيزنطين أو أرمن ذوي أصل نبيل وهم جميعاً مسيحيون، فقد كان محظوراً بشدة أي نوع من الاتصال الجنسي مع المسلمين، من زواج شرعي أو غير شرعي، وفي الواقع، أصدر مجلس نابلس سنة 1120 حكماً قضائياً بوجوب تشويه أو قطع أنف من يضبط مذنباً في الذهاب إلى فراش إمرأة مسلمة، في حين أن أفراد الأسر الأفرنجية الأقل رفعة شعروا بحرية الزواج من بنات مسيحيين محليين مهما كانت أصولهم العرقية، وكانت النتيجة مع مرور السنين أن سليلهم الذين عرفوا بالبلديين poulains كانوا غالباً ما يصعب تمييزهم عن أفراد السكان المحليين، وعلى النقيض حافظ البيازنة والبنادقة والجنوية الذين كانوا يمثلون مع مرور الزمن التجار والمقاولين على هويتهم أكثر من معظم الإفرنج، وذلك بسبب أنهم من ناحية كانوا يقطنون معاً في أحياء اتسعت لهم مع أمراء آخرين كانوا يعقدون معهم اتفاقاتهم، ومن ناحية ثانية كانوا يسافرون من والى إيطاليا في مناسباتهم التجارية، وهكذا لم يفقدوا اتصالهم مع مدنهم في الوطن.

أما الحياة في القرى فكانت نفسها مثل تلك في أزمنة «العهد القديم»، أو تغيرت قليلاً، غير أن القليل من الأفرنج استوطنوا، وحيثما كان ممكناً أشادوا أبنيتهم فوق قمم التلال، وذلك بسبب أن هذه المواقع يسهل الدفاع عنها أكثر من المواقع المفتوحة، ولأنها أيضاً كثيرة الرياح، ولذا فهي ألطف في الصيف، وأكثر مناسبة لذر الحنطة في وقت الحصاد، وتعين على الإفرنج

الذين كانوا يقيمون في القرى أن يتحملوا الظروف البدائية التي تحملها القرويون المواطنون، وكان هذا سبب عدم شعبيتهم، في حين تمتع أولئك الذين استوطنوا في المدن بأسباب الراحة أكثر، بحيث كان بعضهم يعيش في بيوت بسيطة ذات طابق واحد، غير أن معظمهم كان لديهم بيوتاً ذات طابقين، وكان الأغنياء في بيوت أفسح كثيراً دعوها بالقصور، وقد بنيت على طراز متوارث من الأيام الأغريقية الرومانية، كما كانت منتشرة في الحضارة العربية في ذلك الجزء من العالم، وكانت عادة تتألف من ساحة مربعة من الغرف في الطابقين تحيط بفناء مركزي، وبمعزل عن المدخل الرئيسي تتفتح جميع الأبواب والنوافذ على الساحة المركزية، كما ينفتح صف من الشرفات في البيوت المترفة جداً، وكانت سقوفها مستوية، وكان الناس ينامون في الطابق الأعلى بينما تبقى غرف الجلوس والطعام والمطابخ في الطابق الأرضي، وبخلاف رعاياهم الشرقيين الذين كانوا ينزعون إلى تناول طعامهم مثل الرومان قبلهم، كان الإفرنج يجلسون حول موائدهم عندما يأكلون، وتغطى المائدة بقماش وتضاء فوقها الشموع، أو مصابيح الزيت ليلاً، وعندما مرت السنون، وانتهت أسباب التحامل والتحيز ببطء، جهزت بأدوات مترفة مثل الملاعق والسكاكين والشوك والمصافق والكؤوس الزجاجية والصحون والأطباق الأنيقة الممتازة، التي أثارت حفيظة وغضب الصليبيين الأوائل، الذين عبروا القسطنطينية حيث شاهدوا آداب المائدة الرفيعة في بلاد ألكسيوس.

وتغيرت عادات الإفرنج الشخصية في عدة نواح أيضاً وليس جميعها، فقد استمر الرجال يرخون شعورهم الطويلة إلى الأكتاف، ويحلقون ذقونهم رغم أن العديد كان يربي شعور ذقونهم مثل تلك التي لدى السوريين واليونانيين، وكان في القدس حي الحلاقين قرب الضريح المقدس يذهب إليه العديد من السكان مرة أو اثنتين في الأسبوع، بينما كان يحلق آخرون عند العاملين في الحمامات العامة، وكان لدى المدن الأخرى أسباب الراحة المشابهة بشكل ظاهر، أما النساء فقد جدلن شعورهن على شكل جديلتين

طويلتين، وزين وجوهن وارتدن ملابسهن المناسبة، وقد بهت رحالة أندلس كان في مملكة القدس سنة 1181 وكان يدعى ابن جبير - بهت برؤية عروس أفرنجية في يوم زفافها في صور وكتب يقول: «وكانت في أبهى زي، وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم، وهي رافلة في حليها وحللها، تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة». ونادراً ما كان الرجال أقل روعة حيث استمروا لفترة من الزمن يرتدون الملابس الأوروبية التي تألفت من الجوارب الطويلة، والقميص ذي الأكمام الطويلة الضيقة، وفوقه سترة قصيرة طات أكمام قصيرة ايضاً، ومهما كانت تلك الملابس مصنوعة من الصوف الرائع أو القطن أو الكتان او الحرير، فقد كانت متنوعة الألوان ومزينة بشكل متألق بخيوط الذهب والفضة، ومع مرور السنين تخلى الفرسان عن الأزياء الغربية، وبعد عودتهم من أي قتال كان قد حظي باهتمامهم في ذلك الوقت، كانوا ينزعون دروعهم، ويرتدون أردية حريرية مزودة بقبعة في الصيف وفي الشتاء الفراء.

ولعل أكبر تغيير في عاداتهم حدث حول مستوى صحتهم الشخصية ونظافتهم، كان الاستحمام في أوروبا مكروهاً. ولكنهم في مناخ الممالك الصليبية بدأوا يناصرون الحمامات العامة الموجودة في كل مدينة، وكانت تشبه الحمامات التركية هذه الأيام، والحمامات الرومانية في العصور القديمة. حيث يخلع المستحم ملابسه ويضع منشفة حول وسطه وفي قدميه قبقاباً (صندلاً) رغم أن بعض الإفرنج كانوا في بعض الأيحان يسغنون عن المنشفة. وكتب الأمير العربي أسامة أحد أفراد أسرة آل منقذ الحاكمة المستقلة في قلعة في شيزر قرب حماة وكان قد ارتحل كثيراً خلال الممالك الصليبية، وأقام صداقات مع بعض الإفرنج، كتب في مذكراته يشكو أن بعض الناس لم يكلفوا أنفسهم عناء لف منشفة حول أوساطهم بل استحموا وهم عراة، وسواء ارتدى المستحم منشفة أو لم فإنه كان يدخل غرفة ساخنة حيث كان يتعرق ثم بعد

تعرقه بشكل كاف كان ينادي على عامل هناك يقوم بدهنه بالصابون على جسمه كله ثم يفركه ويجففه بمنشفة أخرى، وقبل مغادرته يستريح قليلاً في حجرة انتظار مزودة بأرائك حيث يجلس لينال قسطاً من الراحة، ولقد أصبح الاستحمام جزءاً كبيراً من أسلوب حياة كل فرد حتى إنه كان مطلوباً في مناسبات معينة. فمثلاً كان يفرض على الشباب الباحثين عن الأذن ليصبحوا مترهبنين مبتدئين في واحد من التنظيمات العسكرية ـ أن يستحموا في الحمامات العامة قبل قبولهم رسمياً، كما كانت النساء يستحممن مراراً كالرجال مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً ولا حاجة إلى القول أنهن كن يستحممن بمعزل عن الرجال.

وإذا كان الإفرنج في الممالك الصليبية أكثر نظافة منهم في وطنهم في أوروبا، فإنهم كانوا أفضل طعاماً أيضاً، فلم يكن طعامهم غنياً ومتنوعاً فحسب بل كان يطبخه السكان المحليون الذين كانوا بارعين في المطبخ، وكانت أطباق الدجاج وطيور السماني والحجل والحمام وفية. كما كانت لحوم الضأن والبقر والرت والوعل والغزال والأرانب تطبخ مع الثوب والأعشاب الطيبة وتتبل مع الخردل والفلفل أو تقدم مع الصلصة اللذيذة كما كانت هناك وفرة في أسماك المياه العذبة، بحيث كان الأنقليس يعتبر طعاماً مترفاً، تضمنت مائدة الخضروات المطبوخة الحبوب والبازلاء، والحرفش و(الأرضي شوكي) ونبات الهليون والرز، في حين كان الخيار والخس يؤكلان طازجين، وعندما قدم الإفرنج أول الأمر، دهشوا بالأشياء الجديدة، ولتنوع الفاكهة والثمار التي وجدوها تنمو في كل مكان، والتي لم يسمعوا بها أو رأوها أو أكلوها من قبل، حيث كانت ثمار الموز والبرتقال والليمون والبلح والخروب وثمار شجر الجميز التي دعوها بتين فرعون، ثم العنب والدراق والخوخ والسفرجل والتين العادي، ثم هناك الجوزيات بما فيها اللوز، ونظراً إلى أن تحريم الخمر بالنسبة للمسلمين لم تكن ثمة كروم عنب، ولكن هذا النقص عولج بسرعة، وبعد عدة سنين اصبح الخمر متوفراً، وأغلبه من النوع الجيد، وفي حرارة الصيف كان

يبرد بثلوج لبنان، التي كانت تنقل محفوظة بالقش من الحرارة، وكان الخمر يشرب في البيوت الخاصة أو في الخانات، كما كانت البيرة شائعة، أما عصير الفواكه فكان رخيصاً ومتوفراً.

وفي فترات السلام بين الحروب مارس بعض الإفرنج التجار بضروبها المتعددة، كما كانوا بنائين عظاماً، كما تشهد بذلك كنائسهم قلاعهم، على رغم من أن الكثير من أعمال بنائها قام بها العرب والسكان المحليون الآخرون، وتثبت علامات البنائين الموجودة فوق بعض أحجارهم نشاط الحرفيين الإفرنج، واشتهرت المنطقة المحيطة بصور بفخارها وزجاجها، وقد كشف عن فرن لصهر الزجاج في الضفة الغربية قرب عكا. ولابد أن بعض الصليبيين قد تعلم كيفية نفخ الزجاج من جيرانهم العرب، الذين كانوا يصنعونه منذ الأيام الروماينة وحتى قبلها، ويبدو أن البنادقة الذين استولوا على أجزاء واسعة من صور والريف حولها قد تعلموا أن يكونوا صانعي زجاج هناك، كما ازدهت صناعة المنسوجات في الممالك الصليبية أيضاً وعلى الأرجح استخدم بعض الإفرنج في إنتاج الأنسجة الحريرية والقطنية، وكما هي الحال الآن كانت أكثر الصناعات ازدهاراً هي صناعة الآثار والتذكاريات للحجيج، الذين كانوا يقدمون في أعداد ضخمة لزيارة الأماكن المقدسة بالنسبة للعقيدة المسيحية، ولابد أن الإفرنج المقيمين قد انهمكوا في تلك التجارة الرابحة كثيراً.

وإذا لم يكن الانهماك في التجارة قد عدّ من قبل بعض المواطنين الإفرنج من غير الأرستقراطية عملاً لا يخل بالكرامة، فإن الفرسان قد احتقروها باعتبارها لا تليق بمنزلتهم النبيلة، فقد كانت الحرب حرفتهم وعندما كانوا لا يتقاتلون مع بعضهم البعض أو مع جيرانهم المسلمين، كانوا يمضون أوقاتهم في الصيد، وكانوا يطاردون وهم مسلحون بالرماح على ظهور خيولهم حيوانات صيد مثل الأسود والنمور والذئاب والدبب من أجل المتعة التامة في المطاردة، كما اصطادوا الغزلان وحيوان الرت والوعول والأرانب من أجل

الطعام، وطبعاً تعرض أشخاص منهم للأذى أو القتل لقلة انضباطهم، أما صيد الثعالب فكان يتم بمجموعات كلاب صيادة معدة للقيام بتلك المهمة، واشتهرت بعض أجزاء البلاد بالتفوق الرياضي الذي كان يتم فيها، فكان جبل تابور وغابات بانياس على سفوح جبل الشيخ وسهل عكا، مشهورة بصيد الثعالب، ولعل الرياضة المفضلة لطبقة النبلاء هي البيزرة، وكانت تدفع أسعار باهظة للصقور الجيدة، ووصف أسامة عملية صيد قرب عكا أطلق فيها رجل من جنوة صقره وراء طائر الغرنوق قائلاً: «فرأينا رجلاً من الجنوية قد وصل من بلاد الإفرنج، ومعه باز كبير، وقرنص بصيد كراكي، ومعه كلبة صغيرة، إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته، فإذا أخذ الكركي وحطه، عضته فلا يقدر على الخلاص منها».

وبعد متعة المطاردة. كانت لقاءات السباق والمنافسات بين الأماكن تقوم، وكانت شائعة بشكل فريد. كما كانت حلقات السباق تنعقد خارج إحدى المدن أو البلدات الكبرى بحيث كان السكان يقدمون من مسافات أميال للاشتراك فيها، بينما يحتشد السكان المحليون لمشاهدتهم، ولذا كانت المباريات دائماً أموراً مبهجة رائعة وتتألف بشكل رئيسي من الألعاب الحربية حيث شاع القتال الفردي بين فارسين متكافئين، أو بين مجموعة فرسان في قتال صوري أيضاً، حيث كان الجانبان المتنافسان يتلاكمان في الهواء الطلق، ويختا الفارس خصمه، وعند إعطاء إشارة الهجوم يبدأ الجانبان في الصراع، وتطرح المدي أرضاً، وعندما يضعف الطرفان يقوم الباقون في المركز بالهجوم الواحد بعد الآخر مرة بعد أخرى حتى يعلن أخيراً الفارس الذي خلع أكبر عدد من الخصوم أنه بطل المباراة، كانت تلك الأحداث ذات فائدة في التدريب على الأعمال الحربية الجدية والخطيرة، وكان ثمة جانب أخف أو ألطف في المباريات أيضاً. فبعضها أقرب للتهريج منها إلى التدريب العسكري، ووصف أسامة في مناسبة أخرى عندما كان حاضراً كمشاهد كيف برز الفرسان لممارسة رياضة بالمدية، ومعهم امرأتان عجوزتان عاجزتان وقفتا فوق صخرة، ثم

جعلت المرأتان العجوزتان تركضان في السباق حيث يرافق كل واحدة فرسان على نحو منفصل يحثانهما على الاستمرار في الركض. وعند كل خطوة تتخذها المرأتان العجوزتان تقومان بالسقوط على الأرض ثم النهوض مرة أخرى في حين يضج المشاهدون بالضحك، وتتقدم إحداهما أخيراً إلى النهاية وتفوز بالخنزير».

وعندما كان الإفرنج لا يخرجون خارج بيوتهم للتسلية والمتعة كانوا يقومون بإمضاء أوقاتهم في البيوت أو بزيارة أصدقائهم، ومع مرور السنين أصبحت بعض منازلهم مترفة إلى حد الدهشة، وفي الواقع كانت مترفة جداً إلى درجة صدمت القادمين الجدد من الغرب فيما بعد، فنظير بيوت البيزنطيين الأغنياء كانت بعض قصور بعض الإفرنج الأغنياء مفروشة بالسجاد الفارسي والستائر الدمشقية، والأرضية الموازيكية، والجدران المرصعة بالرخام والأثاث المحفور من العاج أو من الخشب النادر، أو مزينة بأدوات خدمة المائدة من الفضة أو البورسلين الصيني المجلوب مع القوافل القادمة من الشرق، كما كان أصحابها ينامون في أسرة مريحة مزودة بالأغطية الكتانية الناعمة، وفي بعض المدن الشمالية حيث المياه متوفرة كانت المنازل الكبيرة تحتوي على حماماتها الخاصة مع المياه الجارية، وكان الناس يلعبون لعبة النرد، وكذلك الشطرنج بالإضافة إلى الشرب في البيوت والحانات، وشاعت حالة الإدمان على الخمور، وقام الملحنون العازفون المتجولون بأداء عروضهم، وكذلك كانت أدوار التهريج والتقليد تؤدي في الساحات المفتوحة، وفي المدينة بحيث كان يحضرها الكثير من الشعب، وكان المؤدون للأدوار يعتبرون أدنى في المنزلة الاجتماعية، لكنهم كانوا أحسن قليلاً من بائعات الهوى اللواتي كن منتشرات في شوارع كل مدينة.

ومهما يكن الحال، كانت جميع تلك المهن، حكراً على الذكور، ومن الصعب جداً كشف ما كانت النساء الإفرنجيات يفعلن في أوقات فراغهن، فلا شك أن الجزء الأكبر من حياتهن قد صرف للإعداد للزواج، أو بعد زواجهن

لإنجاب الأطفال، رغم أن القليل من أطفالهن عاشوا إلى عمر خمس سنوات، ولكن الجميع اعتادوا على حقيقة كون الموت يأتي عند أوسط العمر، وقد سلموا بأمر موت العديد من أطفالهن تسليمهن بطريقة ترتيب الزواج لديهن، ولم يكن غريباً على الإطلاق بالنسبة لأطفال الطبقات العليا أن يتزوجوا عندما يبلغون من العمر خمسة أو ستة أعوام على أمل أنه في يوم ما ربما كبروا، وحققوا اتحادهم وأنجبوا بعض الأطفال المرغوبين في السلالة، وربما زوجت الطفلة في ظروف أخرى إلى شخص بالغ كبير جداً كي يتم ضم الأسرتين الحاكمتين في اتحاد سياسي مرغوب، وعلى سبيل المثال تزوج بلدوين الثالث ملك القدس الأميرة البيزنطية الصغيرة ثيودوط البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً، بينما كان عمره سبعة وعشرين، وقد قام بذلك لاسباب سياسية تماماً، رغم أنه، كما حدث الأمر، وقع في حبها بعد تلك الحادثة وكان زواجه سعيداً إلى حد كبير طيلة بقائه، الذي لم يدم فترة طويلة لموت [بلدوين] بعد أربعة أعوام، وانطلقت أرملته الشابة لتبرهن أن الزواج وإنجاب الأطفال لم تكونا التسلية الوحيدة المباحة للنساء في الممالك الصليبية. فقد كانت لديها فضيحة مع نبيل بيزنطي وسيم، في متوسط العمر، اسمه أندرونيكوس كومينوس الذي كان مدمناً على مثل تلك الأمور، وقبل التقائه بثيودوار سبق وأغوى ابنة أخ الامبراطور البيزنطي وكانت تدعى يوبوشيا، كما أغوى أخت الأمير فيليبا أخت بوهموند مما أثار غضب أنسبائهما الأقربين.

وبالنسبة لمستوى المعيشة عند الإفرنج في الممالك الصليبية فقد كانت أعلى من أي مستوى عرف في الوطن في أوروبا، وكذلك تمتعوا بمستوى أفضل من العناية الطبية أيضاً. فقد نالوا أطباءهم مع مرور السنين خبراتهم من العرب الذين تقدموا على أطباء الغرب، وفي الواقع وخلال مرور السنين، كان الجميع يستشيرون الأطباء المحليين بالأفضلية على رجالهم في ذلك المجال، وأبدى المؤرخ وليم الصوري كيف «احتقر معاصروه الطب مع ممارسة أطبائنا اللاتينين، وصدقوا فقط اليهود والسامريين والسوريين والمسلمين»، وفي أوج

ازدهارها وقوتها كان لدى الممالك الصليبية على الأغلب مشافي أكثر وأكبر في الحجم من البلدان الأخرى، فكان في القدس وحدها أربعة مشافي، كما كان لمدن عكا ونابلس وعسقلان ويافا وصور مشافيها الخاصة، وكانت تدار أشهر المؤسسات الطبية من قبل الفرسان الاسبتارية في مشفى القديس يوحنا في القدس. وقد كرست حياة هؤلاء الفرسان الرهبان للعناية بالمرضى ومعالجتهم بينما كان يفترض أن تأخذ واجباتهم العسكرية دوماً المكان الثاني، وكانت مهمتهم الرئيسية العناية بالحجاج، وقد بنيت مشافيهم الأولى لتهيئ أسباب الراحة للزوار المرضى القادمين إلى الأراضي المقدسة، واحتوت كل مشفى أربعة أطباء وأربعة جراحين، وقد وضعت قواعد مفصلة للطبقة الكهنوتية حول كيفية تغذية المرضى وترتيب أسرتهم، ومواعيد علاجهم، ونوع المعالجة والدواء الواجب إعطاءهم.

أما الاسبتارية كما أصبحوا يعرفون. فقد نظمهم ناسك يدعى جيرارد كان في القدس عندما حاصرها الصليبيون وكان مسؤولاً عن مشفى مسيحي صغير. وقد قيل عنه فيما بعد أنه ساعد أخواته المسيحيين خارج المدينة بقذفه الخبز إليهم من الأسوار، حينما كانوا في أشد ساعات جوعهم في حين كان يخبر المدافعين المسلمين أنه كان يمطرهم بالحجارة، ومع ذلك كشفت خدعته وقبض عليه واقتيد أمام حاكم المدينة المسلم، ووجهت إليه تهمة الخيانة، وعندما قدمت أحمال الخبز كأدوات جرم تحولت على نحو معجز إلى أحجار، وبرئت ساحة جيرارد وأكسبته القصة شعبية هائلة بعد الاستيلاء على المدينة، وانتهز فرصته ليوسع ويعيد مساهمته في مشفاه، ويجند ناسكين للخدمة فيها، ومنحه غودفري أوف بوليون قلعة ومخبزين في القدس نفسها، ولم تمض فترة حتى أغدق الملوك والنبلاء والأمراء في العالم المسيحي الغربي على جيرارد المنح والممتلكات في مقاطعة بروفانس وفي بلدان أسبانيا وانكلترا وإيطاليا والبرتغال، التي سلمت إليه لتصبح وقفاً على هيئة الاسبتارية، وتدفقت أيضاً جماعات المتطوعين للمنظمة الجديدة، وهم شبه عسكريين وشبه رهبان،

وسدوا الحاجة للعديد من الرجال الذين تاقوا لتكريس أنفسهم للحياة الدينية رغم مهارتهم الوحيدة في العسكرية، والذين تكيفوا بشكل حسن للحياة النشيطة أكثر من الحياة السلبية الكمالية.

وألف في نفس الوقت تقريباً فارس بيرغندي اسمه هيو أوف بينيس جماعة الفرسان عرفوا بالداوية أو الفرسان الفقراء التابعين للمسيح وهيكل سليمان الذي أعطاهم لقبهم الكامل وكالاستبارية، كان هدفهم حماية الحجاج من هجوم المسلمين أو اللصوص في طريقهم إلى القدس والأماكن المقدسة، وفي البداية كانت ثمة ثمانية فرسان أعضاء، ولكن من هذه البداية المتواضعة نمت الجماعة لتصبح قوة غنية بشكل هائل، رغم تكرسها الرسمي للتقشف، وكان لدى الجماعتين الرهبانيتين، الاسبارتية والداوية، نفس التركيب، وكانتا مقسمتين إلى ثلاث طبقات: الفرسان ومنهم يختار مقدم يحكم بسلطات استبدادية، ينبغي أن يكون نبيل المولد، وطبقة ضباط النظام من عائلات أقل غنى ومكانة (أرستقراطية)، وأخيراً طبقة رجال الدين وتمثل القساوسة، وتؤدي المهام غير العسكرية، وبعد قسمهم على التقشف والإحسان والطاعة، أصبح الأعضاء في كل هيئة فيلقاً من الجنود الممتهنين المكرسين كلية والذين لم يكن ينافسهم أحد في العالم في ذلك الوقت، حيث كانوا هيئة ممتازة، وقد عرفوا ذلك، كما أصبحت شجاعتهم مثلاً ونموذجاً بين أصدقائهم وأعدائهم على السواء، وقد وافقوا بكل رضا على الذهاب إلى أي مكان وفي أي وقت وعلى الفور، وقاتلوا بشكل ثابت في أشد الأماكن خطورة، وكاد بعض الداوية والاسبتارية أن يشابهوا في أذهان الصليبيين «الفرسان المثاليين في التصور الخيالي»، ولا حاجة إلى القول بأنهم كانوا قديرين جداً بالنسبة لحكام الممالك الصليبية الذين استخدموهم كالوحدات الخاصة المستخدمة في هذه الأيام، ولسوء الحظ طوروا أخطاءهم الفاضحة التي أفسدت سجلاتهم، فقد تحولت المنافسة الطبيعية بين الهيئتين تدريجياً إلى كراهية مريرة مشتركة، وبذلك بغضت الواحدة الأخرى، كما نمت قوتهما لتميل كلاهما إلى اعتبار

نفسها القانون، وأصبح صالح الهيئة يعتبر أهم كثيراً من الصالح العام، وإذا لم يُعجب أعضاء الهيئة أية أوامر خاصة صادرة عن الملك فإنهم كانوا ببساطة يهملونها.

وبعد أن التحقت هيئة الفرسان التوتون [الألمان] بالهيئة الداوية والاسبتارية، غدوا الهيئات العسكرية الوحيدة لدى الصليبيين إنما ليس الهيئات الدينية الوحيدة، بسبب أن جميع الرهبانيات الضخمة التابعة للكنيسة الكاثوليكية كانت لديها بيوتات هناك، كما كانت القدس مليئة بالأديرة التي منها الأديرة الأوغسطينية على جبل صهيون، وجبل الزيتون، ولعل الدير البنديكتي للقديسة ماري لاتينا كان أهمها، كما كان للبندكتيين كنيسة صغيرة في بيسان ولأتباع دير كلوني كنيسة أخرى على جبل تابو ولأتباع fremonstratensians ثالثة فوق جبل MONTGOIE ولأتباع Carmelles على جبل كرمل. وأتباع cisterians (البندكتيين) في أنطاكية وطرابلس. كما انتشرت أديرة صغيرة أخرى في جميع أنحاء البلاد، بالإضافة إلى العديد من الأديرة الأرثوذكسية واليونانية التي كانت موجودة قبل وصول الحملات الصليبية، أما دور الكنائس المنشقه مثل الكنيسة اليعقوبية والكنيسة المارونية والكنيسة القبطية التي تسامح معها المسلمون، وكانت مباني الكنائس أكثر عدداً من البيوتات الدينية حيث كانت في القدس وحدها سبعة وعشرين مبنى وأربعين في عكا واثني عشر في صور، ولم تكن هذه المدن استثنائية في هذا المجال، حيث كان الدين مركز حياة كل شخص، ولذلك كانت كلمات جيمس أوف فتري الذي كان أسقف عكا في القرن الثالث عشر تقول: «ازدهرت الأرض المقدسة مثل حديقة ذات عدد من رجال الدين النظاميين والشخاص الدينيين، والناسكين والزاهدين، والكهنة، والراهبات والعذارى المنعزلات والطاهرات والأرام المقدسات»، وكانت القدس النقطة المركزية لكل هذا التكريس والنشاط الدينيين، ولكن كان يحتفل بعيد الميلاد في بيت لحم، وكانت تلاحظ الاحتفالات العظيمة الأخرى للكنيسة في أماكن مرتبطة معها تقليدياً: مثل

خميس الصعود على جبل الزيتون وأحد العنصرة على جبل صهيون والجمعة الحزينة عند الجُمجُمة (موضع صلب المسيح) (المعجم). وعيد الفصح في كنيسة الضريح المقدس حيث يحتشد الكثيرون سنوياً لمشاهدة «معجزة النار المقدسة» عندما أوقد ألسنتها الرب، لإضاءة مصابيح الكنيسة.

أما في الحياة اليومية فقد كان الإفرنج قادرون على الضراوة المروعة والكرم والشهامة العظيمين، كما كان في الواقع أعداؤهم وجيرانهم المسلمون، ولم تنحصر هذه الحدود القصوى من التصرف في زمن الحرب عند أي من الجانبين، ولنعطي مثالاً واحداً من طراز ضراوة الإفرنج، فقد اعتقل سنة 1332 فارس بريتوني لاتهامه بجريمة قتل ونظراً إلى أن ضحيته كانت معروفة كعدو، لملك القدس الأسمى، فإن بعض الشك قد جاء حول الملك الذي كان يتوق ضمناً لنزع اسمه، واعتقل البريتوني واعترف بذنبه مؤكداً ألا علاقة للملك بالجريمة، ولم يرض ذلك الملك، وأدين الرجل بحكم الإعدام بتقطيع أطرافه ونفذ الحكم في حينه أمام العامة، وعندما قطعت أطرافه الواحدة بعد الأخرى، وبقي رأسه سئل مرة أخرى عما إذا كان الملك مساعداً في الجريمة، فأنكر ذلك مرة أخرى وأقنع ذلك أخيراً معذبيه الذين قطعوا رأسه.

فمثل هذه الوحشية مروعة، لطفتها بين الحين والآخر بعض أعمال الشفقة والشهامة الرائعتين، التي تعطي مثالاً واحداً فقط مرة أخرى، فبعد تتويج بلدوين الأول ملكاً على القدس سنة 1100 علم بخبر قافلة غنية من العرب كانت مرتحلة خلال شرقي الأردن وقرر أن يقوم الهجوم عليها فقاد قوة فرسان صغيرة عبر الأردن وأغار على العرب ليلاً بينما كانوا نياماً في خيامهم، ونجا القليل، أما الأكثرية فقد قتلت في حين ألقي القبض على النساء والأطفال مع كميات كبيرة من الغنائم والأموال، والبضائع الثمينة، وكانت بين النساء الأسرى إمرأة أحد شيوخ القبيلة، التي كانت حاملاً، وعلى وشك الوضع. وعندما علم بلدوين الأول بحالها أصدر أوامره على الفور بوجوب إطلاق سراحها مع خادمتها الخاصة، وإعطائهما جملين وتزويدهما بوفرة من الطعام

والشراب، وولدت المرأة عند جانب الطريق بعد فترة من تحريرها حيث وجدها زوجها هناك، وقد تأثر الزوج بأريحية بلدوين فسارع إلى شكره.

وخلال تاريخهم كله بقي الإفرنج في الممالك الصليبية الجنس الغالب، مثل وضع البريطانيين في الهند خاصة بالنسبة للحكام الأوائل، الذين وجدوا أنفسهم أفضل بكثير في وطنهم الجديد مما كانوا في أوروبا، وذلك كان هناك تدفق مستمر تماماً من القادمين الجدد من الغرب ووصف فاتشر أوف تشارترز الوضع قائلاً: «لحق أقرباؤنا وتابعونا بنا كل يوم تاركين خلفهم، ربما دون رضا، كل ما يخصهم، لأن الفقير هناك يجد أن الرب جعله غنياً في هذه البلاد، وكذلك من كان يملك القليل من المال أصبح يملك قطعاً ذهبية لا حصر لها، ومن لم يملك ضيعة أصبح الآن يتمتع بقرية حباه الله بها، فلماذا يعود المرء إلى الغرب في حين وجد في الشرق مثل هذا؟ لماذا بالحق! ومع مرور الوقت تعلم الإفرنج في عدة نواح أن يعيشوا في شروط ودية مع جيرانهم المسلمين، وفي حين استمرت عملية «التشريق» لتغيير عاداتهم تضاءلت الفروق السطحية بينهم، وترسخت طريقة عيش ثابتة بين الجانبين، وكتب فلتشر أوف تشارتز يقول: «أصبحنا نحن الغربيين شرقيين كما أصبح الشخص الذي كان إفرنجياً، أو رومانياً في هذه البلاد جليلياً أو فلسطينياً، والذي اعتاد أن يعيش في الريمس أو في تشارترز وجد نفسه مواطناً من صور أو عكا، لقد نسينا أماكن ولادتنا، فالعديد منا لا يعلمها، أو لم يعد بأية حال يسمع الناس يتكلمون عنها. حيث لدى بعضنا في هذه البلاد بيوت خدم تخصه مثل حق موروث ، بينما تزوج آخرون زوجات لسن مواطنات، ولعلهن سوريات أو أرمنيات، أو حتى مسلمات رحبن بنعمة التعميد، فأصبح من كان فيما مضى غريباً هنا مواطناً محلياً».

ولكن شيئين منعا هذه العملية الاندماجية البطيئة من الخروج في شكل قبول كامل للإفرنج من قبل جيرانهم غير المسيحيين: حيث لم ينس الملسمون المذابح بحق مواطنيهم من قبل المسيحيين في أنطاكية والقدس، وخلال تاريخ

الممالك الصليبية كان ثمة تدفق ثابت من القادمين الجدد من الغرب الذين كان سؤالهم الأول لدى وصولهم «أين أجد مسلمين أقتلهم؟»، ومرة بعد أخرى يصل فرسان متحمسون متفجرون بالتصميم للقيام بخدمة الرب عن طريق تذبيح بعض أعداء المسيح الذين عقد معهم مواطنو الممالك الصليبية اتفاقية، أو أبرموا هدنة لم تكن لازمة لصالحهم، فحسب بل أحياناً ضرورية لاستمرارهم، ولكن تلك الإجراءات السياسية بدت تقريباً كفراً بالنسبة للمسيحيين البسطاء القادمين من الغرب، ولم يضبطهم شيء عادة ويمنعهم من الاندفاع من الأراضي الواقعة تحت السيطرة المسيحية في فورة وضراوة وإيمان عميق وإصرار جهنمي على سفك الدماء. وكانت حقيقة أنهم غالباً ما جعلوا أنفسهم يقتلون في الإغارات نوعاً من التعزية البسيطة بالنسبة للإفرنج المعذبين الذين تعين عليهم ان يعيشوا مع تعاقب عدواتهم الذي تضمن في الغالب تجديد الصراع مع جيرانهم حيثما رغبوها، ومع ذلك، لم يحاولوا ثني المهاجرين القادمين من الغرب، لأنهم كانوا في حاجة دوماً للقوة البشرية. في حين كانت الإمدادات القادمة من وراء البحار تعوض الشرين التوأمين في نسبة المواليد المنخفضة، وفي نسبة وفيات الأطفال العالية في نفس الفترة، وعندئذ أخفقت الممالك الصليبية. لقد كانت أزمة قدّر لها ألا تحل إلا عن طريق الانقراض النهائي للممالك التي أسسها الصليبيون الأوائل، لأنه في حين كان ما يزال هناك متطوعون قادمون من الغرب راضين للقتال لنصر النصرانية كما فهموها، ازدادت نار الحقد عند المسلمين حتماً، وعندما خبت حماستهم أخيراً ولم يعد مزيد من المتطوعين يقدمون ختم على قدر الممالك الصليبية.